

سؤال الهوية ومبدأ الإغرابية في رواية "القاهرة الصغيرة" لعمارة لخص

Identity question, and the principle of alienation in the novel "little Cairo" by Amara Lakhoulas

عائشة بومهرارز *

جامعة محمد الصديق بن يحيى جيجل aichaboumehraz@gmail.com

تاريخ النشر: 2024/12/30

تاريخ القبول: 2024/11/10

تاريخ الاستلام: 2024/10/14

Abstract:

The novel "Little Cairo" by Amarah Lakhoulas is considered as one of the Algerian novels of crucial importance in raising issues related to the self and the other, the identity and the difference, beyond the story of the margin and the center.

It is a novel that opened up to the human experience in its deep and complex dimensions, and raised more questions than it was given in terms of answers.

In its general content, this novel translates the story of the immigrant/intruder in his intertwined relationships with the other/different/the owner of the space in order to integrate, live, and continue. The confrontation begins at the level of the imagined between the two opposing voices, the voice of the immigrant and the voice of the owner of the space, moments of utterance, disclosure, and resistance. The response, permeated with the processes of rejection and acceptance, disclosure and discovery, recognition and rejection, approaching and moving away....It seems that the central question raised by the novel is, what are the issues that seem decisive to transform a person's relations with himself and with the other who are different from the nature of hostility, centralism, and selfishness to the nature of understanding, friendliness, tolerance, and intimacy?

How we can live together in peace in one space despite ethnic, religious, linguistic and sexual differences, away from disagreement and conflict?

Through this intervention, we will try to answer these and other questions based on looking at the novel as an alternative narrative to the narrative of unilateralism and isolation.

Keywords: The self; the other; the identity; the principle of exoticism; Little Cairo; Amarah Lakhoulas.

الملخص:

تعتبر رواية "القاهرة الصغيرة" لعمارة لخص، من الروايات الجزائرية الحاسمة الأهمية في طرح المسائل المتعلقة بالذات والآخر والهوية والاختلاف، بما وراء حكاية الهامش والمركز، هي رواية انفتحت على التجربة الإنسانية في أبعادها العميقة والمعقدة، وطرحت من التساؤلات أضعاف ما منحت من إجابات. تترجم هذه الرواية في مضمونها العام، حكاية المهاجر/ الدخيل في علاقاته المتشابكة، المتداخلة مع الآخر/ المختلف صاحب الفضاء، لأجل الاندماج والعيش والاستمرار، حيث تبدأ المجابهة على مستوى التخيّل بين الصوتين المتعارضين، صوت المهاجر وصوت صاحب الفضاء، لحظات من النطق والإفصاح، لحظات من المقاومة والرد، تتخلّلها عمليات، الكشف والاكتشاف، الاعتراف والرفض، الاقتراب والابتعاد، ويبدو أن السؤال المحوري الذي تثيره الرواية، هو ترى ما المسائل التي تبدو حاسمة لتحويل علاقات الإنسان مع ذاته ومع الآخر المختلف، من طابع العدائية والكراهة والأناية إلى طابع التفاهم والودّ والتسامح؟. كيف يمكننا العيش بسلام في فضاء واحد رغم الاختلافات العرقية والدينية واللغوية والجنسية بعيداً عن الخلاف والصراع؟. سنحاول من خلال هذا المقال، الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها، انطلاقاً من النظر إلى الرواية باعتبارها سردية بديلة لسردية الأحادية والمركزية. الكلمات المفتاحية: الذات، الآخر، الهوية، مبدأ الإغرابية، القاهرة الصغيرة .

* عائشة بومهرارز .

مقدمة:

إنّ رواية عمارة لُحوص "القاهرة الصغيرة" تعتبر من الروايات الجزائرية، التي استطاعت أن تضمن لنفسها مكانة متميزة ضمن النتاج الروائي العربي، حيث يقدم صاحبها، ما لعله أكثر إضافة ظهرت خلال عقود الروايات التي قلبت بفنها البديع سؤال الذات والعالم منذ توفيق الحكيم والطيب صالح.

تبلور رواية "القاهرة الصغيرة" رؤى متعدّدة، يسكنها طابع التعقيد والتركيب، تدخل شخصياتها في علاقات متشعبة ومعقدة، وتطرح أسئلة مركّبة تتصل بالهوية والمصير والتفاوض، مترجمة بذلك صورة حقيقية لواقع المهاجر والذوات في علاقاتها المعقدة بالآخر المختلف في البلدان الغربية، وبحثها عن سبل للاندماج والتعايش، حيث تغدو العلاقة بين الطرفين (صاحب الأرض والدخيل) وعاء يضمّن الروائي - عبر خطاب المتخيّل - كل الهواجس النفسية والاجتماعية والتاريخية والحضارية، والتي أصبحت شاغلا محوريا بالنسبة له ولأمثاله من الكتاب الأفارقة والشرقيين، بهدف البحث عن فضاء جديد يضم العلاقات الإنسانية في عوالم يحكمها مبدأ التفاهم والتفاعل والحوار بعيدا عن السيطرة والخلاف والصراع، لأن الإنسانية من منظور هؤلاء تمتلك الطاقات الكبرى لتصوغ كل عبقریات الأجناس واللغات والثقافات في بؤقّة واحدة، وهي الحضارة الإنسانية، التي يتشارك الجميع ويتفاعل في صنعها، خالقين بذلك جوًّا من الألفة والانسجام. ولقد ترجمت رواية "القاهرة الصغيرة" علاقات مختلفة متعدّدة، تنوّعت بين الألفة والوفاء والتفاهم وبين العنصرية والكره والاستبعاد وهو ما ستكشف عنه هذه الدراسة.

1. "القاهرة الصغيرة" /سردية الإرتحال وسؤال الهوية:

تحضر رواية "القاهرة الصغيرة" باعتبارها حكاية تتناسل منها حكايات عديدة، شخصيات مختلفة، متعددة، تحضر من عوالم متباعدة، وفضاءات متنوعة «أشكال آدمية من كل الأنواع والأجناس: شباب أفارقة وآسيويون، يبيعون سلعا مقلّدة، أطفال عرب يتجولون مع آبائهم وأمهاتهم المحجّبات، غجريات في ملابسهن الطويلة المتنافرة الألوان يطلبن صدقة المحسنين» (لُحوص، 2010، صفحة 10)، تجتمع هذه الأشكال والأجناس إلى جانب أجناس أخرى في حيّ من الأحياء الإيطالية، وتحديدًا بحي "ماركوني" بروما، مشكّلة وجودا متغيّرا متحوّلا على مستوى السرد، تغيب خصوصية الفضاء/ المكان، وتضيق أمام هذا التعدّد والتنوع، عادات، طبائع، صفات، تصرّفات، أسماء، لهجات مختلفة، هي نماذج بشرية متعددة/ متنوعة، احتواها فضاء إيطاليا، هذا الأخير، شكله، خارجه، موقعه، إيطالي، لكن عمقه، داخله، الذوات التي تسكنه، كانت خليطاً من الأعراق والأجناس واللغات، علاقات وتبادلات ومعاملات تجمع بين الشخصيات المختلفة، كاشفة في النهاية عن لحظات متباينة من النطق والإفصاح، من الاقتراب والابتعاد، من الخوف والارتياح، من الحب والكره، من الكشف والإكتشاف، والواقع «إنّ الترحال في العالم يدفعنا إلى وضع هوياتنا المتميّزة موضع المخاطرة،

بأن نرتحل إلى العوالم التي غالبا ما نشعر فيها بأن الارتياح ليس سهلاً، وأنا انفصلنا عن المركز، في عملية الترحال تتداعى هوياتنا وتتنحى سيناريوهاتنا المروعة للامتياز، وينزاح مؤقتاً ترف التراجع إلى المكان الأول، إنّ الترحال يجعل السيناريوهات المروعة للامتياز واضحة، ونلمح طريقة النظر إلينا، بعيون أولئك الذين تعلّمنا أن ندركهم بـ«غطرسة» (بيلي، دس، صفحة 204). هكذا يشير الرحيل أو الترحال بطريقة أو بأخرى إلى تغيير المرء طبيعته في النظر والرؤية والإدراك سواء لذاته أو للآخر أو للعالم من حوله «إنّ سرود الإرتحال تطوي تجارب بحثية في عالم مغاير تكون حصيلته اكتشاف هوية الآخر والاعتراف بالمغايرة، وإعادة صوغ الذات في ضوء ذلك» (عبد الله، 2011، صفحة 221)، بما يضمن لها حالة من التوازن والاستقرار والاندماج الفعلي في فضاء الآخر المختلف، رغم الاختلافات العرقية والدينية واللغوية والجنسية.

2. مبدأ الإغرابية / مقاومة الذات:

يشير مصطلح الإغرابية إلى معنى الاختلاف والمغايرة، «فالإغرابي (Exotisme) هي كل ما هو مغاير ومختلف، وممارسة الإغرابية تكمن في التلذذ بالاختلاف بين الذات وبين موضوعها، ومن يرقى إلى هذا المستوى من المعرفة، ينعتة سيغالين بالإغرابي، من حيث هو شخص يملك القدرة على إدراك نكهة المتنوع» (أفاية، 1993، صفحة 139)، بمعنى آخر؛ إنّ الإغرابي هو ذلك الشخص الذي يستطيع مقاومة الذات في سبيل الالتقاء بالآخر المختلف، فيحقق الانفصال الرمزي عن ذاته/ أنه الأصلية، يتخلص من هواجس الهوية والانتماء، يتخلص من قيود الهوية القاتلة التي تقود إلى الهاوية، ومن ثم، يتخلص من نرجسيته وأنانيته المفرطة و«غطرسته» «ذلك أن الغطرسة تعترض سبيل بناء الائتلافات والترحال في العالم لابدّ أن يتمّ بإدراك ودود (بيلي أ.، ديسمبر 2012، صفحة 203)».

وحتى يكون المرء قادراً على تقبّل الآخر، لابدّ أن يمارس نوعاً من مقاومة الذات، إنّ الإغرابية «تعني الانتزاع من الذات ومن ثقلها الأصلي، واستقبالا للآخر في مغاييرته وتميّزه» (أفاية، 1993، صفحة 152)، و في ظلّ انعدام أي نوع من مقاومة الذات، يبقى الشعور بالألفة والارتياح والإنسجام التام مع الذات، هو المتحكم في رؤيتها لذاتها وللآخر ولعلاقاتها المختلفة، الأمر الذي يمنع هذه الذات بصورة مطلقة، من خلق جسور التفاعل والتواصل مع الآخر/ المختلف، «إنّ الاختلاف المقصود هنا، يوفر حرية نسبية في ممارسة التفكير، دون الشعور بإثم الانفصال عن الماضي» (إبراهيم، 1997، صفحة 6).

إنّ فهم الاختلاف على أنه انفصال رمزي عن الذات بما يجعل مراقبة أفعالها أمراً ممكناً، وبالمقابل انفصال إجرائي عن الآخر، بما يسمح من رؤيته بوضوح كافٍ في مغاييرته وتميّزه إلى درجة يمكن معها «التمتّع بالأجنبي من منطلق كونه- أي الاختلاف- ينتزع المرء من نرجسيته ومن انغلاقه» (أفاية، 1993، صفحة 152)، مثل هذا الفهم للاختلاف من شأنه أن يكون وسيلة لتعميق الرؤى الذاتية، وإعادة صياغتها على نحو مبدع وخالق من جانب، كما يكون وسيلة لخلق

فسحة للحوار والتفاعل مع الآخر من جانب ثانٍ، دون أن يصل إلى حدّ الذوبان والتلاحم مع هذا الأخير (الآخر/ المختلف)، يقول تودروف: «إنّه بدون تماهٍ نجعل الآخر، وبدون تفتق للاختلاف نضيع ذواتنا، إنّ العالم الذي يحلّل الموضوع، بدون أن يقيم عملية إسقاط معه يضع الحالة الأولى من العملية (أي التماهي) والعاشق الذي يتلاءم مع الآخر يضع الثانية لذلك يجب أن يكون المرء إغرابيا لكي يستطيع الجمع بين الاثنين» (أفاية، 1993، صفحة 139).

هكذا، تتماهى الذات مع الآخر من أجل اكتشافه والتعرّف عليه من غير أن تصل إلى حدّ الذوبان أو التلاحم معه، يجب أن تبقى بينهما مسافة حيوية، هذه المسافة من شأنها، أن تجعل اللقاء فرصة للاتصال والتواصل، للكشف والاكتشاف، للتعرف والاعتراف، ومن ثمّ، فرصة للتفاهم والألفة والوفاق، بعيدا عن الاختلافات العرقية والدينية واللغوية، ومن هنا، تصبح المغايرة أداة للتعرف أي طريق لمعرفة الذات والغير معاً» (حرب، 1995، صفحة 19). وعمارة لُحُوص يريد للتحويل والتغير في خطابه الروائي هذا أن يمس دواخل الذات الإنسانية، لأننا بحاجة إلى تغيير يمس العمق، يمس الجوهر، حتى نقترّب جوهرًا ونتواصل عمقا، فنولد من الاختلاف والتعدد وحدة وانسجاما، ونخلق من التنوع وفاقا وائتلافا، صوت الروائي هنا يحضر باعتباره ردا على منطق التعددية الثقافية الليبرالية المنبعثة من صوت المركز، والتي أكدت على التقارب شكلا ومظهرا - بين الأعراق والأجناس والثقافات - في مشهد كرنفالي احتفالي مشهدي متغافلة عن العمق والجوهر الذي هو أساس التواصل والتفاهم والتقارب، ومالم يتغير هذا الأخير - العمق الجوهر - ويتخلص من الذاكرة الملوثة التي تسكنه سيقى المجال مفتوحا للخلاف والصراع .

3. الرواية وتفكيك النسق: من حكاية الثأر إلى حكاية الحب:

1.3. الرواية/ نحو نسق إنساني متسامح:

تحكي الرواية حكاية مجموعة من الشخصيات، منها حكاية الشاب "كريستيان" الإيطالي الذي انضمّ إلى ذلك الفضاء المتعدد الجنسيات واللغات، هو فضاء يضمّ عدداً كبيراً من المسلمين العرب والسينغاليين والبنغاليين وغيرهم، جاء هذا الأخير، "كريستيان" إلى حيّ "ماركوني" كجاسوس ضمن الاستخبارات الإيطالية، بغرض الكشف عن عملية تفجيرات إرهابية، يتوقّع القيام بها من طرف جماعة من المسلمين المتطرفين ممن يسكنون هذا الحيّ، تمّ اختياره لكفاءته اللغوية، يتحدث اللغة العربية بطلاقة وإتقان، ما شكّ أحد من الإيطاليين أو المهاجرين في أصله العربي، يقول متحدّثا: «خالجني إحساس بأنني أسكن جسد شخص آخر، أشعر أنّي غريب عن نفسي، الحق أنني غريب عن روما» (لُحُوص، 2010، صفحة 10) تقمّص كريستيان شخصية عيسى التونسي، غير شكله وهندامه، واندرس بين المهاجرين العرب، بصفته مهاجراً تونسيا مسكيناً، يبحث عن غدٍ أفضل، يبحث عن فرصة عمل ومأوى، واستطاع العيش مع هؤلاء المهاجرين تحت سقف واحد، في بيت يضمّ عدداً من الأجانب العرب وغير العرب، تحصّل على عمل (غاسل صحون

بمطعم هناك)، لتبدأ هذه الشخصية حياة جديدة، تبحث عن الاندماج والاستقرار، تقيم عديدا من العلاقات والارتباطات مع الآخرين من المهاجرين والايطاليين في الآن نفسه، لتعيش بذلك تجربة من نوع خاص تتفرج على ذاتها وعلى الآخر في الآن نفسه، و إلى جانب هذه الشخصية المثيرة، تحضر في مقابلها شخصية "صفية" أو "صوفيا"، وهو الاسم الجديد الذي أطلق عليها من طرف صاحب الفضاء/ إيطاليا، صفية امرأة مصرية متزوجة، ترتدي الحجاب، جاءت مع زوجها وابنتها إلى إيطاليا، واستقرت في هذا الحي، الذي غابت ملامحه ومعالمه الإيطالية، وطغت عليه الملامح العربية، لاسيما المصرية، نظراً للعدد الهائل من المهاجرين الذين يقطنون به، تقول: «في الأيام الأولى من وصولي، خيل إلي أنني لا أزال أعيش في القاهرة لكثرة ما رأيت من المصريين، وكنت أتساءل بين التعجب والحيرة، يا عالم يا هو، هي روما راحت فين» (لخوص، 2010، الصفحات 40-41).

بدت صوفيا، شخصية منفتحة، تبحث عن الاندماج والعيش بسلام، عالم إيطاليا بالنسبة لها هو محطة حاسمة للكشف والاكتشاف، معرفة الذات من جهة، والتعرف على الآخر/ المختلف من جهة أخرى، وعلى الرغم مما في المهمة من صعوبة، إلا أن صوفيا تقاوم: تقول: «قررت عدم الاستسلام، لقد قاومت حتى لا أفقد الثقة في نفسي، كم كانت الرحلة شاقة» (لخوص، 2010، صفحة 75)، إذن صوفيا قررت عدم الاستسلام، قاومت من أجل الاندماج والعيش بسلام، حاولت تحطّي كل الصعوبات، كانت صوفيا تتخطى في كل مرة لأجل أن تنتصر طموحاتها وآمالها البريئة، كان الوقت بالنسبة لها ثميناً، ينبغي استثماره في ما ينفع تقول: «الوقت شيء ثمين جداً. أشغل نفسي دائماً بأمر مفيدة. في الصباح أقوم بشؤون البيت بسرعة وأخصص ساعتين لدراسة الإيطالية، أنا عصامية لم أتلق أي درس في الإيطالية على يد معلم. غالباً ما ألجأ إلى القاموس لفهم المفردات الجديدة...أولي أهمية قصوى لمسألة النطق.» هكذا كانت صوفيا تُقبل على لغة الآخر/ الإيطالي، تسعى لإتقانها والتمكن منها كسبيل للتعرف والاعتراف، كيف لا وهي التي جعلت هذا الأخير، يعترف بإتقانها للغته، وقدرتها على التحدث بها بكل طلاقة ويُسّر، تقول: «كثيراً ما يمدحني الإيطاليون لإتقان لغتهم. تارة يحسبونني إيطالية اعتنقت الإسلام، وتارة ولدت في إيطاليا من أسرة مهاجرين أو وصلت إلى البلد في الصغر وتلقيت تعليمي في المدارس الإيطالية.» (لخوص، 2010، صفحة 88) صوفيا تنظر دوماً للأمر والمواقف من الجانبين الإيجابي والسلبي، وفي كل مرة كانت تغلب الإيجابي على السلبي، تتمتع بما تعمل، تستمتع بحياتها، لم تكن تحبط نفسها فيما كانت تتعرض له، تقول متحدثة عن موقف حدث لها مع ذاك الإيطالي العنصري المتزمت: «هذه ليست المرة الأولى التي أخرج فيها مرارة العنصرية، ماذا عن التعليقات الفضفاضة حول الديمقراطية وحرية التعبير والحق في الاختلاف في إيطاليا؟! بث لا أتعاطف مع حجاي بمرور الوقت، لم يعد الأمر مسألة حجاب أو لباس أو قماش بل قضية كرامة. إذا لم يقبلوا بحجاي، فهذا يعني أنهم يرفضون ديني وثقافتي وبلدي وأصلي ولغتي وعائلي ووجودي في هذه الحياة. وهذا لا أقبله

أبدا» (لُحوص، صفحة 116) هي تمارس نوعا من التحدي، حيث يصبح التحدي هنا في مضمونه العام تعبيراً عن «مجتمع لم يعد مدركا بوصفه آخر، إنما باختصار، بوصفه يحدد ذاته ويؤازرها، ويقدر على تسجيل الإطار المفهومي الذي تتحدد داخله القوة الهائلة، التي تدفعه للتحرر والانطلاق والتقدم» (أشكروفت، 2006، صفحة 192)، إن تحدي صوفيا هنا، يعبر عن تملصها من سلسلة الأفكار والقيم والسلوكيات العدائية السلبية، التي تقف حاجزا أمام العلاقات الإنسانية، فكرها الإنفتاحي لم يعد يحتكم إلى شيء من موروثات الثقافة التقليدية، الرجعية المغلقة التي تمنع الانطلاق والتحرر والتقدم، تقول حينما قررت إخبار أمها بطلاقها من زوجها بسبب عنصريته وأنايته «أنا متيقنة بأن أمي ستدرك عاجلا أن زمن المطلقات المغبنات قد ولى، ثم إنني أعيش في روما وليس في القاهرة، أنا في منأى عن الضغوط الاجتماعية المسلطة على المطلقات والعوانس» (لُحوص، 2010، صفحة 189)، جرأتها تكشف عن تجذر نزعة المقاومة والنضال والرفض لديها، مقاومة عنيدة لكل نزعات الهيمنة والأحادية والتمركز، من المستوى المحلي في أبسط تشكيلاته إلى المستوى العالمي، صوفيا هي صوت الهامش الذي «يعبر عن جزء من فئات اجتماعية جديدة، أصبحت تتبنى منطق الإفصاح، وتنشد التغيير قولاً وعملاً لتحسين شروط عملها وحياتها وموتها، كذلك لا بد أن الخطاب الكوني الراهن يحضر هو أيضاً، كعامل مساند يضغط بقوة وبشكل متصل على كل الثقافات التقليدية التي لاتزال تقاوم الاندماج في عصرها وفق شروطه، وليس بحسب تصوراتها الضيقة على ذاتها وعالمها» (الزهراني، 2012، صفحة 238) إن ما يهم صوفيا هو تحقيق الاندماج والعيش بسلام حيث تغيب اعتبارات اللغة والانتماء والفضاء أمام رغبة التعرف والتواصل والاتصال مع الآخر/ المختلف تقول متحدثاً: «عندما يعيش المرء في بلد ما عليه إعطاء الأولوية للأخبار المحلية، أنا مثلاً أهتم كثيراً بأخبار روما وما جاورها، أريد أن أعرف ما يحدث هنا أي في المدينة التي أقيم فيها وليس في كابل أو بغداد، الفضائيات مكيدة حقيقية بالنسبة للمهاجرين العرب الذين صاروا متعلقين ببلداتهم الأصلية تعلقاً مرضياً كيف يمكن للمرء أن يعيش منقسماً بين بلدين». (لُحوص، 2010، الصفحات 88-89) لقد نهضت صوفيا بمقاومة مزدوجة: ضد الأنا/ الذات التراثية وضد الآخر، مصححة، معدلة، مفككة، كانت تسعى لتأسيس علاقات ودّية يحكمها منطق التفاهم والاعتراف والحوار.

2.3. الذات المستضيئة/ كريستيان: الإنتراع من الذات سبيل للقاء الآخر/ المختلف:

بالرغم من أنّ كريستيان الإيطالي- صاحب الشخصية المنتحلة (عيسى التونسي)- وهو يندس بين المهاجرين العرب كان في مهمة استخباراتية، تجعله دون شك يرى فيهم أو بالأحرى، يرى في الآخر/ المختلف ذاك العدو، الخائن، المجرم الذي يهدد وجوده وأمن بلده وسلامته، إلا أنه يحضر على مستوى السرد، في صورة الشخصية المتسامحة، المتصالحة مع ذاتها ومع الآخر، حيث وهو يقيم علاقات مع الآخر/ الأجنبي الدخيل كان مستعداً للتحويل والتغير، كان مستعداً

للتعريف والاعتراف، كريستيان/ عيسى التونسي « كان ينتزع من ذاته للالتقاء بالآخر، في سياق هذا اللقاء يتبدى له أن وحدة الذات شيء وهمي، باعتبار أن هناك (خارج داخلي) قابل للإعلان عنه، ومن ثمة، فإنه لا يمكن مواجهة الآخر أو الآخرين بدون تبدل، وكلما قاومنا احتمال هذا التبدل، كلما استبعدت فرصة اللقاء» (أفاية، 1993، صفحة 132).

يحضر كريستيان في حي ماركوني في صورة عيسى التونسي المهاجر/ الدخيل، يحاول الاندماج والتأقلم مع واقع المهاجرين العرب، يطلب قريهم وودهم، يقول: «أنا مهاجر تونسي مسكين، جاء إلى روما من أجل لقمة العيش، معروف أن القادمين الجدد، هم دائماً في حاجة إلى يد المساعدة خلال المرحلة الأولى، أنا هنا بين إخواني العرب، ما المشكلة» (لخوص، 2010، صفحة 42)، أعلنها منذ البداية علاقة أخوة، أعلن عن رغبته في التواصل مع هؤلاء الغرباء الدخلاء، واعتبر نفسه بين إخوانه، يريد أن يشعر بالراحة والاطمئنان، يبحث عن الاعتراف، يدخل دائرة المقبول، المعترف به، يقول: «أريد أن يعرف الداني والقاصي أنني تونسي، لكنه لم يكتثر بتاتا، يا سيدي المحترم لا أطلب منك أن تستضيفني في بيتك أو تدعوني إلى كأس شاي بالنعناع، إني أطلب مجرد فرصة لأعرفك بنفسي، ألسنت زبونا جديدا، ألا أستحق القليل من الاحترام؟!» (لخوص، 2010، صفحة 13).

تحوّل كريستيان/ عيسى التونسي فجأة إلى دخيل غريب، ينبعث صوته من واقع المعاينة والمعاونة يطلب الاحترام والاعتراف، يريد أن يُسمع صوته، شأنه شأن المهاجر الغريب، الذي نجده وهو يتّجه نحو الذوات المستضيفة يطلب دوما الودّ والسلم والسلام، ولكنه يقابل بالرفض والإقصاء، يجد نفسه عرضة للاتهام والسبّ والشم والكراهة من طرف الذوات المستضيفة، في غالب الأحيان دون سبب، لكن الآن ومع هذه الحركة العكسية التي تحضر على مستوى السرد، حيث تتحرك الذات المستضيفة ممثلة في كريستيان الإيطالي باتجاه الآخر/ المهاجر، يتخلّى عن كل ما يوحى بانتمائه إلى فضاء إيطاليا، ينتزع من ذاته، يغلق الباب على ذاكرته، ويحضر في صورة عيسى التونسي، يتحدث اللغة العربية بطلاقة، وهو داخل فضاء إيطاليا يتحرك باتجاه المهاجر الهامش/ الدخيل، معلناً منذ البداية عن رغبته في الاندماج والعيش بسلام، فيا ترى ماذا سيكشف له الواقع؟ هل سيكشف له وهو يتعامل مع الآخر المهاجر، عن واقع ذوات عنصرية متخلّقة، مجرمة، عدوانية، كسولة، كما هو مترسّخ في الذاكرة الإيطالية الملوثة، أم أنه سيكشف له عن واقع ذوات إنسانية متسامحة، طيبة، مسالمة، تضحى في سبيل الحصول على لقمة العيش؟.

ما يمكن الإشارة إليه، هو أن كريستيان/ عيسى التونسي أول ما حرص عليه في البداية هو ضرورة تقبّل هذا الآخر/ المهاجر باختلافه ومغايرته، فتقبل دينه، لغته، انتماءه، جنسه، عاداته، وهنا تحديدا تبدأ عملية الانتزاع من الذات لتحقيق اللقاء، وعلى ما في العملية من صعوبة، يتحوّل الانتزاع وتتحول المعاونة والمعاينة شيئا فشيئا إلى اكتشاف جميل، فتقبل المختلف، تتمتع بإدراك نكهة المتنوع، تنفتح على الغريب والمجهول، وقد أقبل كريستيان الإيطالي/ عيسى التونسي،

على تغيير داخله، ذاته، فراح يتكلم لغتهم، يشاركهم يومياتهم، نقاشاتهم، اهتماماتهم، يعمل أعمالهم، يشاركهم آمالهم وآلامهم، أحلامهم، همّه هو تحقيق الفهم والتعرّف، لأجل التفاهم والاعتراف، يقول وقد عجز عن فهم المهاجر "عمر البنغالي"، الذي جاء إلى روما للعمل لأجل إعالة عائلته، ورفع الغبن عنها «فلتذهب الراحة إلى الجحيم ! أدركت أنني لا أزال أفكر كإيطالي، ولم أفلح بعد في فهم طريقة تفكير المهاجرين، ما أكثر الإيطاليين الذين يتساءلون عن سبب بقاء محلات المهاجرين مفتوحة طوال أيام الأسبوع إذا عرف السبب بطل العجب، لقد جاؤوا إلى إيطاليا للعمل، وليس للراحة، فهم ليسوا سياحًا وإنما عمالًا، هدفهم كسب لقمة العيش، وإعانة أهاليهم، للأسف أوقفنا هذه المحادثة القيمة، لأن عمر مجبر على العودة إلى السوق» (لحوص، 2010، صفحة 49).

يحاول كريستيان أن يعرف ويتعرّف، يكشف ويكتشف، ينبعث صوت الهامش/ عمر البنغالي من واقع المعاينة والمعاناة، موضحًا مفصّلًا عن مجموعة من الحقائق حول لجوء المهاجرين للعمل في فضاء إيطاليا/ الآخر، وتحمل الظروف القاسية في سبيل كسب الرزق لرفع حالة الغبن والعوز على عائلاتهم، فهذا ما يدفع المهاجر للعمل هنا، لا السياحة ولا الراحة كما يتصور صاحب الفضاء، وقد بدت هذه المحادثة التي جرت بين الطرفين قيمة بالنسبة لكريستيان، كونها جعلته يفهم ويتعرّف ومن ثمة، يصحح أخطاءه ونظرته للآخر، «وأن نفهم كل شيء، هو أن نغفر كل شيء، وإن مزيدًا من الفهم الحاصل من خلال المعرفة والاتصال، لابدّ أن يؤدي إلى مزيد من التسامح بين الناس» (ياك، 1999، صفحة 547).

لم يكن كريستيان الإيطالي في علاقته بالآخر/ المهاجر، يطلب المستحيل، بل كان يطلب الممكن، بمعنى آخر؛ بدل أن يطلب من الآخر المختلف أن يتغيّر ويتحول في أشياء غير قابلة للتحوّل والتغير (الجنس، العرق، اللون، اللغة، الانتماء)، راح هو يتغيّر ويتحوّل أمام هذا الآخر، فاستطاع بذلك أن يتقبّله كما هو باختلافه ومغايرته، ومن ثم، كانت ذاته، ذاكرته خالية من كل شيء، عدا من الحب والعطف والحنان، يقول: «فكرت في عرض نقيب الاستخبارات مدة أسبوع، وتناولته من جوانب مختلفة، قلت في نفسي، إنّ التجسس عمل قبيح مذموم، الجاسوس لابدّ أن تتوفّر فيه بعض الشروط الأساسية، إذا أراد أن ينجح، إخلاء قلبه من الشفقة، وسريان الخيانة في دمه» (لحوص، 2010، صفحة 30).

يظهر على مستوى السرد، أن كريستيان الإيطالي، لم يكن يركّز على نجاح المهمة التي أسندت إليه، بل إنه وهو مع المهاجر الدخيل ما كان يشكّ مطلقًا فيه، أو يشعر بالخوف، لقد ركز على أن لا يحضر في صورة الجاسوس الخائن وحضر في صورة الصديق الوفيّ العطوف، المتعاون، المتسامح، يقول بعد أن حدثت له مشكلة مع أحد الإيطاليين العنصريين الذي تعرض لصوفيا المحجبة وسبها وشتمها، فراح كريستيان يدافع عنها ويصد هذا العنصري المتزمت الذي توعدّه بالقتل وهدده، يقول: «اعترفت لنفسي أنني لم أخذ هذه المسألة محمل الجدّ فكرت في مفاتحة "جودا" في الموضوع،

لاشك أنه سيغضب منّي لأنني لم ألتزم بالاحتياطات اللازمة، الأمر الإيجابي أنني سأصبح بطلا يدافع عن المستضعفين المهاجرين في ماركوني مثل روبين هود ألا يكفي هذا لعزاء النفس» (لخوص، 2010، صفحة 118).

تحوّل كريستيان الإيطالي إلى مدافع عن هؤلاء المهاجرين يعطف عليهم، يشاركهم همومهم بل إنه يساعدهم في حلّ مشاكلهم، كلهم اقتربوا منه، وكانوا يرون فيه الرجل الصالح، هو ابن الحلال أهل الثقة، لا بل إن كريستيان /عيسى التونسي جعل ضابط رئيس الاستخبارات "جودا" يتوسّط لدى عمال الشرطة لحل بعض المشاكل، التي يتعرض لها هؤلاء المهاجرين يسأله "جودا" ضابط الاستخبارات وقد توسط لحل مشكل "مُحمّد المغربي" في قضية تخصّ وثيقة الإقامة «هل أنت مسرور من أجل صديقك المغربي؟ بالتأكيد كان على حافة الانهيار العصبي» (لخوص، 2010، صفحة 93)، ها هو كريستيان يفرح لفرح المهاجرين ويحزن لحزنهم، ينبعث صوت "جودا" وقد أبدى "عيسى التونسي" سروره لأجل صديقه مُحمّد «رائع لقد صرنا مساعدين اجتماعيين، بدلا من ترصّد الإرهابيين نبدل قصارى جهدنا لعلاج المهاجرين من المشاكل النفسية لسنا أقل شأنا من متطوعي الجمعيات الخيرية» (لخوص، 2010، صفحة 93).

لقد أدرك كريستيان أن "الأنا" سبب التعاسة "و"نحن" طريق السعادة، وعليه، بدلا من مقاومة مصدر السعادة والاطمئنان والراحة (نحن)، المهاجرين الدخلاء المهمشين، المنحرفين، الفوضويين، الخونة، المجرمين، في نظر رجال الأمن، جودا، الجد جوفاني، الرجل الوحش، هؤلاء الذين يمثلون الذاكرة الإيطالية الملوثة، عمل على مقاومة الذات، قاوم ذاته ليضمن وجوده الودي بينهم، يقول: «إنّ أقصى أنواع العقاب هو ليس العنف، وإنما الإقصاء من الجماعة، هذا ما أريد أن أجتنبه، أرغب في نيل رضى الجميع واستحسانهم، لذلك أنا مستعدّ كل الاستعداد لقبول كل قوانين الشرف بلا قيد أو شرط» (لخوص، 2010، صفحة 65).

هكذا كان يسعى لخلق جوّ من الألفة والودّ بينه وبين هؤلاء المهاجرين، وعليه، كان يطمح للفهم والتفاهم، هو لن يعارض ما اتفقت عليه الجماعة، حتى يحافظ على وجوده بينهم، إذن شعر بحاجته إليهم، هو يريد قربهم فعلاً، عمل على مقاومة مصدر التعاسة فلم يعرف الخوف والرعب، عاش مطمئنا مرتاحاً بينهم، كريستيان عمل على قتل الحيوان الذي يسكن داخله، فبدّد حقه ودفن كرهه، أنانيته، ومن ثم، استطاع أن يتّصل ويتواصل مع الجميع، كان مستعدا للتضحية في سبيل إرضائهم وحلّ مشاكلهم، «إنّ الشخصية المتسامحة، نجدها أقل تعصبا للقومية، للعرق، للثقافة، وأكثر مرونة اجتماعيا، بمعنى؛ ليس لديها اتجاهات ثابتة حيال أعضاء جماعتها أو أعضاء الجماعات الأخرى، تقبل الرأي والرأي الآخر على قاعدة الاحتمالية والسببية والتفكير العقلاني، تقيم علاقاتها التبادلية على أساس تقاسم الوجود والتفاهل بالمستقبل والثقة، والإيمان بضرورة وجود الآخر» (بريك، 2010، صفحة 95).

باختصار حضر كريستيان/ عيسى التونسي بصفته إنسانا يسكن داخله طفل بريء، مفعم بالحب والعطف والحنان، يقول: «أعترف أنني معجب بالباعة المهاجرين المتجولين مثل إبراهيم، إنهم الفوضويون والثوريون في ساحة التجارة، لا يكتثرون بالرخص والضرائب...، السوق ملك الجميع، وهو مكان للتواصل والتبادل، لماذا لا ترفع البلدية يدها الملعونة عن هؤلاء الباعة المغلوبين على أمرهم» (لحوص، 2010، صفحة 79). تعامل بهذه الصورة مع هؤلاء الغرباء الدّخلاء المختلفين عنه، في انتمائهم وعرقهم وجنسهم، تعامل معهم كإخوة أو كزبائن جاؤوا للعمل وكسب الرزق، ومن ثم هم في نظره بحاجة إلى الحب والاطمئنان، يقول: «فالزبون في نهاية المطاف طفل يحتاج إلى فيض من الحنان والاطمئنان» (لحوص، 2010، صفحة 13).

لقد حاول أن يمنح الجميع الحب والعطف والحنان، كان يؤمن بالتضامن الإنساني فراح، يعمل على إصلاح الأمور وإيجاد الحلول، والتعاطف مع من يراه في حاجة إلى ذلك، يقول متحدّثا عن طالبة إيطالية قصدت صاحب شقة لاستئجارها، والذي يخيب ظنّها في النهاية، فراحت تبكي «قبل يومين التقيت بطالبة عند مدخل العمارة، جاءت من أجل استئجار سرير في شقة كانت الدموع تندافع من مقلتيها، توقفت للاستماع إليها من باب التضامن الإنساني، كانت تريد أن تتكلم مع شخص حتى تروّج عن نفسها» (لحوص، 2010، صفحة 63)، هكذا كانت هذه الشخصية، عنوان التعاون والتضامن والحب والعطف، تغيب المشاعر اللاإنسانية مع هذه الشخصية لتحلّ محلّها المشاعر الإنسانية الفطرية البريئة حبّ، عطاء، تسامح والتي من شأنها أن تجمع بين البشرية وتوحدّهم وتقرب بينهم، بالإضافة إلى هذا راح يتفرّج على الذوات المستضيفة أبناء بلده، يلامس ذاك (الداخل/ الخارج) على حقيقتها، حيث وقف شاهدا على ظلمهم وعنصريتهم وحقدهم واستغلالهم وأحكامهم المسبقة تجاه الآخر/ المهاجر الغريب، ليكتشف في النهاية أن المشكلة ليست في هذا الأخير (المهاجر)، بقدر ما هي في تلك الذوات (صاحبة البلد) التي تصدّ باب التغير والتبدل، وقد راح يكشف حقيقتها وما تتميز به من عنصرية وأناية وغلظة وحقد تجاه الآخر الغريب دون سبب يذكر.

خاتمة:

هكذا إذن، تقدّم رواية القاهرة الصغيرة لعمارة لُحوص منظورا ثقافيا يقوم على أنسنة العلاقات البشرية بين الأجناس والثقافات والشعوب، ويفكك سياسات السيطرة والاستبعاد والاحتواء القائمة على علاقات القوة والاختلاف والهيمنة، والرواية من منظور نقد ما بعد استعماري تطرح مفهوما للحياة يعاش في زمنية الاختلاف الثقافي بمعاني الودّ والحب والتفاهم والفرح والمرح، يعاش بقيم التسامح وتبادل الخبرات والحوار الذي ينطلق من انفتاح الهوية، حيث يمكن في الواقع أن يكون ثمة كرم ورؤيا، تغلب على الحواجز والفواصل، وأخيرا تكامل وجودي إنساني، عطاء دون شروط وتسامح دون مقابل.

إنّه صوت عمارة لخصوص، هو صوت التعددية الثقافية النقدية المنبثقة من صوت الهامش التي تؤسس للألفة والوفاق والتقارب بدل الخلاف والصراع والتباعد، لأجل حضارة إنسانية مشتركة تتلاشى معها كل الاختلافات العرقية والدينية والثقافية والجنسية.

هذا النص سيبقى يترجم - بشكل أو بآخر - حلم البشرية في اللقاء والتفاهم، يترجم بحثه عن زمنية جديدة تعاش في زمن الاختلاف الثقافي بقيم التسامح والبراءة والصدق، هي آمال وطموحات سوف تبقى تأثيراتها تتسع وتعمق إلى أن تفضي تدريجياً، إلى تكريس واقع ثقافي جديد مختلف، يعبر عن ذاته بخطابات فكرية، معرفية، جمالية، أكثر ثراء وتنوعاً من جهة، وأكثر إنسانية وبراءة وعقلانية من جهة أخرى، خطابات تبشر بولادة الإنسان، بعودة البراءة المفقودة، بظهور ذاكرة إنسانية نقية، تبشر بانبثاق تواريخ إنسانية صافية، مبنية على نسق ثقافي انساني متسامح، لا يعرف غير الحب والألفة والوفاق، لا يعرف غير العطاء والتسامح، هي خطابات مقاومة معارضة مفككة، لخطابات الأحادية والمركزية ومعارضة أيضاً لخطابات التعددية والاختلاف باسم التعددية الثقافية الليبرالية.

مراجع البحث:

1. إبراهيم عبد الله. (2011). السرد والاعتراف، الهوية. (ط1) بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
2. أليسون بيل. (ديسمبر 2012). تعيين موضع الهويات المنكئة نحو رؤية لشخصية البيض العرّافة للامتياز (ضمن كتاب: نقض مركزية المركز (الفلسفة من أجل عالم متعدد الثقافات بعد استعماري ونسوي)، ج2، ترجمة: مئى طريف الخولي. عدد 395 ، 203. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
3. بيل أشكروفت. (2006). الرد بالكتابة (النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة). (شهرت العالم، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
4. بيلي. (دس). تعيين موضع الهويات المنكئة نحو رؤية لشخصية البيض العرّافة للامتياز (ضمن كتاب: نقض مركزية المركز من أجل عالم متعدد الثقافات بعد استعماري ونسوي)، ترجمة: مئى طريف الخولي.
5. رياض بريك. (2010). الكره أو اللاتسامح مع الآخر (منظور نفسي اجتماعي). (ط1) دمشق: خطوات للنشر والتوزيع.
6. سيغوردون ياك. (1999). صورة الآخرين المخاوف الحقيقية الكاذبة في العلاقات الغربية-الأوروبية ضمن كتاب الآخر العربي ناظراً ومنظوراً إليه، تحرير: الطاهر لبيب. (ط1) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
7. عبد الله إبراهيم. (1997). المركزية الغربية إشكالية التواصل والتمركز حول الذات. (ط1) بيروت: المركز الثقافي العربي.
8. علي حرب. (1995). التأويل والحقيقة قراءات تأويلية في الثقافة العربية. (ط2) بيروت: شركة دار التنوير للطباعة والنشر.
9. عمارة لخصوص. (2010). القاهرة الصغيرة. (ط1) الجزائر: منشورات الاختلاف.
10. محمد نور الدين أفاية. (1993). المتخيل والتواصل (مفارقات العرب والغرب). (ط1) بيروت: دار المنتخب العربي.
11. معجب الزهراني. (2012). مقاربات حوارية. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي.